المحاضرة07: شعر الطّبيعة

1/شعر الطّبيعة في الأندلس:

شعر الطّبيعة هو الشّعر الّذي يتّخذ من عناصر الطّبيعة مادته وموضوعاته، وقد تأثّر شعراء الأندلس إلى حدّ كبير بشعر الطّبيعة في المشرق فاقتفوا أثره، ولكن لم يلبثوا إلاّ أن تفوقوا عليهم في هذا الجانب تفوقا واضحا، فأتوا بالرّوائع الشعرية والأدبيّة الخالدة الّتي جعلت هذا الغرض يزداد ويتسع ويأخذ منحى كبيرا، ولعلّ من الأسباب المهمة الّتي ساعدت في هذا الغرض طبيعة الأندلس الخلاّبة من رياض وأنهار وجداول وأشجار وبساتين وحقول، وحياة اللهو ومجالس الطّرب الّتي كانوا يعقدونها في الطّبيعة، حتّى أنّ الشّعراء أصبحوا يشخّصون هذه الطّبيعة ويحوّلون مظاهرها إلى أشخاص، واستنطقوها ولم يتعاملوا معها على أنّها بيئة صامتة؛ فقد حوّلوا الجبل إلى إنسان يتحدّثون معه، ويصفون الطّبيعة أوصافا مادّية فشبهوا النّهر بالفضة والتّربة بالمسك والرّوض بالحرير والحصى كالدرّ، وذلك أثّر في الشّاعر الأندلسي ليصورها لنا بشكل لم نعهده، فقد أُعجبوا بطبيعتهم وتغنّوا بها، وعبّروا عن انفعالاتهم بمشاهدتها، ومجّدوها وأظهروا قدرتهم على تصويرها.

2/السّمات العامة لشعر الطّبيعة في الأندلس:

-الإسراف في التّشبيهات والاستعارات، والعناية بتشخيص الطّبيعة؛ وذلك بإبرازها في صور شخوص وكائنات حيّة، ممّا يجعل هذه الطّبيعة تكتسب حركة ونشاطا على نحو ما نجده في شعر ابن خفاجة وابن زيدون.

-الاستعانة بألوان البديع (البديع المعنوي واللّفظي) فاستخدموا الطّباق والمقابلة والجناس.

-امتزاج شعر الطّبيعة بغيره من الأغراض؛ فقلّ ما يأتي غرض الطّبيعة غرضا مستقلا قائما بذاته، فنجده يمتزج بأغراض أخرى كالغزل والمدح والرّثاء، وبمجالس الخمر والموشحات.

-تصوير الطّبيعة الأندلسية الحيّة والصّامتة، والطّبيعة الصّناعية الّتي تدور حول مظاهر الحضارة كالعمران والمساجد والقصور.

-وصف البيئة الأندلسيّة من منتزهات ومجالس لهو وطرب.

-المزج بين المرأة والطّبيعة؛ فكانت الحبيبة جنّة وشمسا...

-عاش الأندلسيون مع الطّبيعة وأحيوها في شعرهم وغزلهم على الخصوص، ومن ثمّ أصبح وصف الطّبيعة حركة أدبيّة شاملة لا غرضا مستقلا فحسب.

-وقف الشّعراء من الطّبيعة موقف المصور الّذي يصور ظواهر الطّبيعة.

-غلبت على أشعار الطّبيعة الاستعارة والتّشبيه، وكلاهما يدلّ على خصب الخيال وسموّه.

-بثّ الحياة والنطق في الجماد؛ فأصبحت هذه الجمادات حيّة تتحرك وتنطق وتضحك وتبكي.

3/نماذج من شعر الطّبيعة:

من الأمثلة والنّماذج على شعر الطّبيعة في الأندلس وصف "ابن خفاجة" (شاعر الطّبيعة الأكبر) الّذي وصف طبيعة الأندلس قائلا:

يا أهل أندلـــــس لله دُرّكم مـــــاءٌ وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ

ما جنّةُ الله إلاّ في ربوعكم ولو تخيّرتُ هذي كنت أختارُ

وفي وصف الرياض يقول "ابن مرج الكحل":

وعشية كـم كـــنتُ ارقُبُ وقتها سمحتْ بـــــه الأيّامُ بـعد تعذّرِ

فالرّوض بين مفضفَض ومذهّب والزّهر بـــين مُـــدَرْهَم ومـــــدنّرِ

والوُرق تشـــــدو والأراكةُ تنثني والشّمسُ تَرفلُ فب قميصٍ أصفر

وفي وصف القصور يقول الشاعر "أبو بكر بن عمار" قصر الدمشق بقرطبة:

كلّ قصر بعد الدّمشق يُذمّ فيها طاب الجنى وفاح المشمُّ

منـــظر رائـــــقٌ وماءٌ نميرٌ وثرى عـــــاطرٌ وقصر أشمُّ

وفي ذكر النّخلة يقول "عبد الرحمن الداخل":

تبدّت لما وسط الرصافة نخلةٌ تناءت بأرض الغرْب عن بلد النّخل

فقلتُ شبيهي في التغرّب والنّوى وطول التّنائي عن بنيّ وعن أهلي

نشأتِ بأرض أنت فيها غريبة فمثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي

ومن القصائد المشهورة قصيدة "وصف الجبل" لابن خفاجة وممّا قاله يذكر الجبل:

أَصَخْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائب

وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتك ومـــــــوطنَ أواهٍ تبتّل تـائب

وللشّاعر "بن عبد الله الكتندي" قطعة شعرية يمزج فيها الغزل بالطّبيعة:

هذا لسان الدّمع يملي الغرام في صفحة أثرّ فيها السّقام

عهـــد لهندٍ لم يكن بالّذي تقـــدح فيه نفثات الملام

هكـذا ألهمـت البيئـة الأندلسـية الشّـعراء ولفتـت أنظـارهم إلى موجوداتهـا، ومجـالي محاسـنها، واستغرقت كثيرا من أنظارهم واستحوذت على عواطفهم، في تناغم بين ما تدركه الحواس المختلفة وبين ما تميل إليه النوازغ المختلفة، والعواطف المضطرمة.

وغـاص الشّـاعر الأندلسي في مـا يرى ويسـمع ويلمـح في البسـاتين والريـاض والأنهـار، والجبـال، وألوان الورد البديع الحسن المنظر، ورصدوا ملامح الجمال في كلّ شيء حوله ممّا أخرجته الطّبيعة دون أن تمتدّ إليه يد الإنسان، وممّا تدخلت فيه الصّناعة والبراعة.